سيرة السيد عمر مكرم

صفحة مجيدة من جهاد الشعب المصري

في الدفاع عن أرضه وحريته ودستوره

للدكتور رياض شمس

في حلكة ذلك الجزء المظلم من تاريخ مصر الذي يبدأ قبيل الحملة الفرنسية، وينتهي في أوائل حكم محمد علي باشا، تألق نجم رجل امتاز بخلقه المتين، ووطنيته الصادقة، واستحق التفاف الشعب حوله؛ فكان لا يأتمر إلا بإشارته، ولا يخضع لغير رأيه، ولا يفزع في الملمات إلا إلى شخصه العظيم. وقد استطاع هذا الرجل أن يحرز لمواطنيه بقدوته السامية، وبفضل إيمانه بقوة الشعب، انتصارات باهرة على أعداء البلاد من فرنسيين وأتراك ومماليك، وكانت نتيجة انتصارات الشعب على يديه تغيير اتجاه تاريخ مصر الحديث.

وهأنذا أحاول أن ألقي نظرة خاطفة على بعض مواقف ذلك الزعيم الشعبي، لأن سيرته في الواقع هي سجل ممتاز لفترة هامة من تاريخ مصر السياسي الحديث، ولأني أجد هذه الفترة وثيقة الاتصال بتاريخنا الحاضر، وأجد فيها من العظات السياسية والاجتماعية ما ينبغي أن يظل ماثلا أمام عيني الشعب المصري، مستقراً في صميم قلوب الشباب في فاتحة عهدنا الجديد

وقد كنت أجهل قدر هذا الرجل لأني مع الأسف الشديد كغيري من غير المتخصصين، تكاد تنحصر معلوماتنا عن تاريخ العصور المصرية الماضية، ولا سيما العصر الذي عاش فيه ذلك الزعيم فيما درسناه موجزاً في المدارس الثانوية، ونسيناه عاجلاً بعد تخرجنا فيها

ولكن مؤرخاً معاصراً تربطه بذلك الزعيم صفات مشتركة من متانة الخلق، وصدق الوطنية، والإيمان الراسخ بقوة الشعب، استطاع بعد سنين طويلة من البحث والتحقيق أن يستخلص لنا من ظلمات الماضي القريب ضياء وضاحاً حجبه عن أبصارنا كر الغداة ومر العشي مدي قرن من الزمان

* * *

اقتحم الغزاة الفرنسيون بلادنا فرأى مواطنينا العظيم أن أمراء المماليك لا يعنون بغير إخفاء أموالهم ثم الذهاب إلى الحرب ليبادروا بالهروب لدى الصدمة الأولى، فأهاب بالشعب أن يشمر للذود عن حياضه. وهنا أترك الكلمة للمؤرخ الجليل الأستاذ محمد فريد أبو حديد مؤلف « سيرة عمر مكرم ». قال في الصفحة الحادية والخمسين:

« وكان جواب الشعب باهراً نبيلاً، إذ لبى جميعه نداء الواجب فخرج كل من في القاهرة وضواحيها من الرجال والشبان حتى لم يبق أحد إلا الضعفاء والنساء، وجاد كل منهم بما عنده من مال قليل دراهم اقتطعها الفقراء من أقواتهم وأقوات عيالهم وجادوا بها ليشتروا سلاحاً وخياماً وذخيرة ... »

فلما هزمت المماليك في موقعة امبابة، وقرر شيوخ القاهرة أن يعلنوا التسليم للقائد الفرنسي، أنف السيد عمر مكرم أن يعود إلى القاهرة إلا إذا كانت عودته على جهاد، رغم أنه يعلم أن اسمه في طليعة الأسماء التي اختار القائد أصحابها ليحكموا البلاد بجانب الفرنسيين. وأنت تقرأ تعليق المؤلف على هذا الموقف الكريم على الصفحة ٥٦ وما بعدها:

« ولو كان نظره إلى نفسه ومصلحتها لآثر العودة كما عاد السادات والشرقاوى ، على أن يكون أحد زعماء العهد الجديد ، فلا يتحمل التشريد والنفى والحرمان والفقر ومعاناة الأهوال والشدائد ؛ ولكنه لم يكن ينظر إلى نفسه وما تتجشمه من الأخطار وما تتكبده من المشقة ، بل كان ينظر إلى بلاد شهد أول تحركها نحو التحرر ، وذكر حقها فى الحياة الحرة المستقلة فلم يجد له وسيلة إلا أن يضحى بنفسه راضياً فى سبيل الجهاد ، مهما يكلفه ذلك من عناء ...

« مع أن مراداً وابراهيم ومن معهما من الأمراء لو استطاعوا أن يعودوا إلى الحكم بالاتفاق مع الفرنسيين لما ترددوا فى ذلك لحظة ، فلم تكن بأحدهم رغبة فى الجهاد لنجلة البلاد من حكم الأجنبي ، أو للمحافظة على حياتها وحريتها ، بل كان كل ما يرمون إليه أن يسترجعوا السيادة ، ويعودوا إلى سيرة طغيانهم وعسفهم ؛ ولو وجدوا من الفرنسيين ميلاً إلى الاتفاق على أن يعودوا إلى الحكم تحت علمهم وحمايتهم لما ترددوا فى ذلك .. »

ولاشك أن تأنق المؤلف فى عرض موقف المماليك وبراعته فى المقارنة بين الوطنية الحقيقية والنفعة الشخصية ، قد أعاد إلى ذاكرة القارئ عشرات المواقف فى تاريخنا السياسى الحديث ، منذ سنة ١٩١٩ إلى الآن ، حيث كان قادة الأمة الأمناء يضربون عن الاشتراك في الحكم بكل صور الإضراب ، ويتحملون ألوان المصادرة والنفي والسجن والتشريد ، بينما يتهالك غيرهم على التقاط الفتات المتساقط من مائدة الغاصب على حساب الوطن وحرية البلاد

ثم اسمع المؤلف يروى لك فى الصفحة ٧٢ قصة ثورة مارس سنة ١٨٠٠ قال :

« سارع (السيد عمر مكرم) إلى الخروج من عزلته إذ رأى الواجب يناديه إلى العمل .. واجتمع فى قلوب الشعب عامة عوامل تدفعه وتذكى حماسته من غضب الكريم لكرامته ، وخوف الشريف على شرفه ، واشتعلت العاطفة الوطنية في الصدور ، تثيرها ذكريات المجد التالد من ماضى القرون ، فلم يكن إلا أن صاح السيد عمر صيحته ... حتى هبت الثورة المصرية الكبرى التى دامت تضطرب فى القاهرة سبعة وثلاثين يوماً ، ودخلت فى أثنائها قلوب المصريين عامة فى بوتقة الانصهار ليكون منها شعب جديد يتقارب فيه الأمير من العامي ، ويمتزج فيه الكبير بالصغير ، وتنبغ من غمرات ذلك أمة حديثة ، يحس فيها الفرد بأنه للمجموع ، ويحس فيها المجموع بأنه من الأفراد »

... ص ٨١ « كان السيد عمر قد عاد إلى مصر مضطراً ، ثم حاول أن يقاوم الأجنبي عند ما لاحت له الفرصة فلم تواته الظروف وعجز ، ولكنه كان لا يزال يأمل أن يبقى على جهاده حتى تحين فرصة أخرى ، فلم يرض أن يقيم على أرض مصر ما دامت أقدام الأجنبي تطؤها ، فآثر العودة إلى الهجرة والبعد عن وطنه ، وأن يتكبد المشقة والفقر ولوعة الفرقة من أحبائه وأشياعه على أن يقيم فى بلاده لا يستطيع أن يتنفس فيها حراً »

ص ٨٧ « ... وأصبح السيد عمر بعد رجوعه مع الجيش المنتصر رجل مصر وزعيمها . اجتمعت فيه الزعامة والجهاد والتضحية ، وقد علاه عند ذلك تاج الانتصار والانخراط في سلك رجال الدولة الجديدة . ودخل القاهرة فكان دخوله يوماً من الأيام المشهودة ، إذ خرج الناس للقائه والترحيب به »

أنشأت أطالع الصفحة الأولى من « سيرة السيد عمر مكرم » فلم أكد أبدأ الكتاب حتى وجدتنى عاجزاً عن تركه لحظة ؛ وما زلت به حتى وصلت إلى الصفحة ٢١٩

ولما فرغت من دراسته ضممته إلى أحب مراجعي إلي ، وألفيتنى على ظمأ إلى نهلة أخرى من مورد تاريخنا الحديث . ذلك المورد العذب الذي طالما حالت ظروف مصر السياسية دون تصويره للطلبة المصريين تصويراً صحيحاً ينذى الروح القومية ويذكي فى الشباب المتعلم نعرة الاعتزاز بالماضى المشرف ، ويبعث فى نفسه حمية التطلع إلى أن يكون لبنة قوية فى بناء صرح بلاده ، ويزيده حرصاً على الاضطلاع بمسئولياته كمواطن شريف فى بلد لم يقصر مواطنوه فى الماضى قريبه والبعيد عن أداء واجبهم الوطنى بكل ما لديهم من وسائل

إن الأسلوب الذى ابتدعه الأستاذ الكبير فريد أبو حديد فى كتابة « سيرة عمر مكرم » ليعد بحق فتحاً جديداً ، بل فتحاً مجيداً ، فى تاريخ المؤلفات التاريخية المصرية

فقد استطاع هذا الكاتب الموهوب أن يلقى ضياء وضاء على

تاريخ القومية المصرية ، بأن يستخرج من الحقائق التاريخية المدعمة بالأسانيد ، ذخيرة صالحة وغذاء شهياً للشباب المصري الذي كان إلى عهد قريب لا يجسر على تقليب صفحات الماضي خشية ألا يجد فيها ما يشرف

وقد كان لنا بعض العذر ، فقد عودنا المؤلفون الأجانب والمترجمون المصريون أن نقرأ صفحات الماضي في ظلال التحامل على القومية المصرية ، والانتقاص من قدر أمتنا النبيلة المجاهدة

وإن كل ما نتمناه أن يتاح لطلبة مدارس مصر الثانوية أن يطالعوا سيرة عمر مكرم ، وأن يحرص كل مصري يحترم نفسه ويعتز بماضيه على دراسة هذا السفر النفيس

أما المؤلف فانا لا نستطيع أن نشكره لأنه قد دعانا إلى مائدته فقدم لنا لوناً من طعام فاخر لا عهد لنا به ، فلما استوعبناه تفتحت شهيتنا إلى المزيد . وها نحن أولاء ننشى موائد الثقافة فلا نجد هذا الطراز من المؤلفات التاريخية التي نحن أشد ما نكون حاجة إلى تذوقها بعد ما تذوقنا من لذة سيرة السيد عمر مكرم

لذلك نطالب مؤرخنا النابغة أن يخرج لنا سلسلة من الكتب تكشف عن أمجاد ماضينا القريب تكون حافلة بالعظات البالغة ، العظات السياسية والخلقية والاجتماعية على نحو ما ألفناه في كتاب عمر مكرم

فاذا اضطلع بهذا الواجب ، وهو على مثله من النابغين فرض حتم ، كان لنا أن نسميه بحق : « منصف تاريخ القومية المصرية في الأزمنة الحديثة »

عباس شمس

تصويب

ورد في فاتحة مقال « قصة الموسوعة الجامعة » الذي نشر في عدد الرسالة الماضي (ص ١٨٨٥) ما يأتي : « سجل العلم الحديث فتحاً جديداً خطير الشأن بصدور الموسوعة الايطالية التي بدأ صدورها منذ أعوام ثلاثة فقط » والصواب « منذ أعوام قلائل فقط »

« بقية المنشور على صفحة ١٩٢٢ »

أمة من الفساد أن تسن في الرذائل سُنَناً ، وتشرع في المخازي شِرَعاً تجعل الأشرار المخادعين فائزين حيثما ساروا ، وترد الأبرار الصادقين خائبين أين توجهوا . مهما تشتد العلة فالخيبة أكثرها للأولين ، والنجح أكثره للآخرين . فإذا أرادت تجعل الفساد سنّة قوتها دون الغاية ، وزوالها قبل نهاية الطريق

أحسب يا أخي أن الذي لبس عليك الأمر لبساً ، وملأ عليك العالم حزناً ، وملأك على العالم سخطاً ، أنك نظرت أول ما نظرت إلى دواوين الحكومة فرأيت جماعة من خفاف الأحلام صغار النفوس شالت كفتهم فارتفعوا ، وآخرين من راجحي العقول كبار النفوس ثقلت موازينهم فنزلوا ؛ فلما امتلأت نفسك أسفاً وأملك في الناس خيبة ، نظرت إلى أنحاء الأمة ساخطاً متشائماً ، فنفضت عليها هذا السواد ، ونفثت عليها هذه الغضبة ، واتهمتها بهذه التهمة

إن دواوين الحكومة أقرب المواضع إلى ما زعمت ، وأكثرها تمرضاً لما وصفت . ذلك بأن الرزق فيها لا يُنال بالسعي والكد ، والجهد والدأب ، والاحتكام إلى سنن الاجتماع وقوانين الطبيعة ؛ ولكن الرزق فيها يُقسم بأيد قليلة ، ويصرّف بآراء ممدودة ، فإذا فالت هذه الآراء ، وطاشت هذه الأيدي ، وقع الفساد ، ثم شاع وعمّ حتى يبلغ أمده . وكثيراً ما تفيل الآراء وتطيش الأيدي بأهواء السياسة ومنازع التحزب ؛ على أن هذا مهما كثر لا يبلغ أن يكون قاعدة العمل وسنّة الجزاء

ولا تنس يا أخي أن هذه الدواوين حديثة عهد بأيدي الأجانب ومن تربّى في عبوديتهم ؛ وكانت سنة الأجنبي أن يرفع من استسلم إليه وتوكل عليه ، ولا يكون هذا الاستسلام وذاك التوكل إلا احتقاراً للكرامة وازدراء بالخلق الفاضل ؛ ونحن لا نزال في أول عهدنا بالاستقلال لم تهذبنا التجارب ولم تتمكن أيدينا من وضع القواعد الصالحة ، وسن السنن القديمة ، وإقامة الوزن بالقسط بين الناس أجمعين

فإن رأيت جوراً في الدواوين وظلماً بين الموظفين فهي علة زائلة . فلا تنشرها على الأمة كلها ، ولا تمدها على الزمان جميعه . واعلم أن الظفر للحق والخيبة للباطل ، وأن النصر للفضيلة والهزيمة للرذيلة ، وأنها الفترات ثم ينجلين ، والعاقبة للمتقين .

والسلام عليكم ورحمة الله

عبد الوهاب عزام

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧